من روائع « دكنز »

مطاردة . . .

للأستاذ محمود عزت عرفة

تقديم :

عاش تشارلز دكنز فى انجلترا بين عامى ١٨١٢ و ١٨٧٠م . وكان كاتباً روائياً مبدعاً ؛ ومصلحاً اجتماعياً ثابت القدم فى ميادين الإصلاح ، شديد المعارضة فى التنديد بمساوئ المجتمع ، وكشف مواطن الشر والرذيلة فيه

قصر أعظم جهوده على كفاح الفقر والبؤس والتشرد والجهالة وما إليهن ، وحمّل المجتمع ونظمه الجائرة وِزْرَ تفشى هذه الأدواء الموبقة على عهده

وروايته : مغامرات أوليفر تويسْت « Oliver Twist » — وقد نُشرت عام ١٨٣٨ — تعد نموذجاً كاملاً لحملته فى هذا الاتجاه[1] ، ففيها يعالج مشكلة الأطفال المتشردين علاج الطّب الخبير . وأوليفر — فى نظرنا — هو النموذج التام للانسان البائس ، الذى تلفظه الحياة ويأبى عليه المجتمع إلا حياة التشرد والذلة . ولكنه — على حد قول بعض النقاد الإنجليز — « يجتاز هذه العوالم من الرذائل والشرور دون أن يقع فريسة لها ، أو يروح ضحية لمغرياتها ومجاربها »

وهذا الفاصل شبه المستقل الذى نترجمه من الرواية ، يرينا أوليفر أولَ مقدمه إلى لندن (وهو غلام فى مبدأ العقد الثانى من عمره) وقد وقع فى شرك عصابة من اللصوص يحرك أفرادَها من الغِـلمة الطرّادين ، يهودى عجوز يُدعى فاجين Fagin

ونأمل كثيراً أن يلحظ القارئ مبلغ الشبه بين حوادث هذا الفصل ونظائره مما يمثل حتى اليوم على مسارح الشوارع فى بعض مدائننا الكبرى !

وإذا كنا نعالج الآن بقايا مشكلات كتلك التى عالجها الغربيون منذ مائة عام ، فأملنا وطيد فى أن نحلها كأحسن ما حلوا ، وأن نغير من أثرها فينا كأفضل ما غيروا ، والله يتولانا بهديه وتوفيقه ...

الترجمة

انطلق الفتيان الثلاثة مهطعين : المراوغ « The Dodger » فى إزاره الكيش وقبعته مثلثة الإطار ، كما هو شأنه دائماً .

(١) أنظر مقالتينا عن : (تشارلز دكنز . مواهبه وخصائص فنه) المنشورتين فى العددين ٥٢٠ و ٥٢٢ من هذه المجلة . بتاريخ يونية ويولية عام ١٩٤٣ م

« وهذا النحو من النقد يعد من المحاولات البارعة فى الأدب العربى ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف » ! ثم يحاول أن يوهم القارئ أنه هو يصدر عن غير تحامل وإسراف وأنه يحكم بالعدل بين فريقين ، فيمضى يقول : « فإن خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لها بالفضل ، والباقلانى كان يعمد إلى القصائد التى يعرف فيها الضعف ليصل دائماً إلى الحكم للقرآن بالفضل » ص ٦٢

وهو لم يأت بمثل لما كان يفعل خصوم القرآن ، كما أنه يعلم أن الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن لم يتعرض إلا لما أجمع أهل الأدب أنه من عيون الشعر كمعلقة امرئ القيس ، لكن صاحب النثر الفنى فى سبيل مذهبه لا يبالى أن يفترى على الباقلانى ، ولعله افترى على من سماهم خصوم القرآن

ثم يمضى الدكتور زكى مبارك فيقول : « إن الذى يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها ، وهو فى مقابل ذلك يجدّ فى البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ، ولا يستبيح لنفسه التفكير فى وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف فى تجريح ما هموا به قديماً من الموازنة بين أثرين أحدهما من الشعر وثانيهما من القرآن »

وهذا أيضاً كاف فى إثبات ما ادعيناه على الدكتور زكى مبارك من دعوته إلى نقد القرآن ، وهو أول أدلتنا على ما اتهمناه به فى أمر القرآن

محمد أحمد الغمراوى

ومستر باتس يسير الهوينا وقد دس يديه في جيوبه . ثم أوليفر يتوسط الفتيين وهو يسائل نفسه في عجب عن وجهتهما

وكان الثلاثة يدلفون من طريق ضيق إلى الميدان الرحيب المسمّى (ذى جُرين) — قرب كلير كنْويل — عند ما توقف المراوغ فجأة ، معترضاً بسبابته فمه ؛ مجتذباً إليه رفيقيه في حرص وحذر

وهتف أوليفر : ما ذا جرى ؟ ! ...

فأجاب المراوغ : صه ، أما ترى هذا العجوز الواقف لدى المكتبة ؟

قال أوليفر : آلسيدُ المحترم الذى هنالك ؟ ... نعم أراه

— إنه طلبتنا !

فقال مستر تشارلى باتس : يا لها من ثمرة مبكرة !

وأدار أوليفر نظره بين الفتيين في عجب بالغ ، ولكن لم يُتح له أن يشفى غليله بسؤال ؛ إذ سرعان ما رآهما يعبران الطريق يتسللان خلف الرجل مقتربيْن منه . وتبعهما أوليفر عن كثب وهو موزع القلب بين إقدام وإحجام

كان السيد شيخاً وقور الهيئة أشيب الرأس ذا منظار ذهبى ، يرتدى سراويل بيضاء وسترة دكناء الخضرة موشاةً بنيقتها بالمخمل الأسود ، وقد تأبط عصاً أنيقة من الخيزران الهندى

وكان قد ابتاع كتاباً من الحانوت ثم توقف منهمكا في قراءته كما لو كان مستقراً على مقعده الوثير في قاعة مطالعته الخاصّة !

ومن المحتمل كثيراً أن يكون قد توهم نفسه كذلك ؛ إذ كان من الواضح أنه لم يعُد يعير الحانوت ولا الشارع ولا الصبية التفاتاً . وبالجملة لم يكن يحس وجود شيء إلا الكتاب نفسه ؛ وقد أقبل على مواصلة النظر فيه ، فما يفرُغ من صفحة إلا ليستأنف القراءة في أخرى ... وعلى وجهه سمات واضحة من الشغف والاهتمام

وبدت رهبة أوليفر وذعره بالغين حدهما — وهو واقف على مدى خطوات منه ، دوه العينين — حينما أبصر المراوغ يدس يده في جيب السيد فيستل منه منديلاً يدفعه إلى تشارلى باتس ، ثم ينطلق الغلامان صوبَ أول منعطف من الطريق في سرعة هائلة

وفي لحظة واحدة تكشف أمام عينيه سر هذه المناديل والساعات والجواهر التى طالما شهد الصبية يقدمون بها على « فاجين » في مسكنه

ووقف برهة وقد تنزى الدم في عروقه رعباً وفزعاً ، حتى أحسَّ كما لو أن ناراً تلتهمه . ثم استدار على عقبيه في ارتباك ووجَل ، وراح يطلق ساقيه للريح حتى ما تكادان تلمسان الأرض ، دون أن يعرف حقيقة ما يأتى أو يتبين عاقبته

جرى كل هذا في آونة قصيرة . وفي اللحظة التى بدأ فيها أوليفر يجرى ، كان السيد قد دس يده في جيبه فافتقد منديله . وأدار فيما حوله نظرة ثاقبة ، وما إن رأى الغلام يركض في هذه السرعة حتى وقر في نفسه أنه السارق فصاح بملء حنجرته : « أوقفوا اللص ! » ثم انطلق خلفه مهرولاً والكتاب في يده

ولم يكن السيد وحده مثيرَ هذه المطاردة : ذلك أن المراوغ ومستر تشارلى باتس كانا قد توقفا لدى مدخل أول بيت بعد المنحنى ، كيلا يلفتا إليهما الأنظار وهما يجريان عبر الشارع العريض ؛ فما إن سمعا الصيحة وأبصرا أوليفر يجرى راكضاً حتى تصورا ما حدث تماماً . فبرزا من مكمنهما في تأهب وإعجال وأقبلا يصيحان : « أوقفوا اللص » مشتركين في المطاردة كسادة كرماء ذوى أريحية ...

ولم يكن أوليفر متأهباً لتطور الموقف على هذا الوجه ، فرَهِب واستطير ، ومضى في جريه كالريح العاصف ، ومن خلفه السيد العجوز يقفوه الغلامان ، وهم يتصايحون جميعاً في صرخات تشبه الزئير

« أوقفوا اللص ... أوقفوا اللص » شد ما يسحر الناسَ هذا النداء !

لقد ترك له البائع حانوته والحوذى مركبته ؛ وطرح القصاب والخباز واللبان أوعيتهم التى يحملون ؛ وتخلى الشيال عن حمله ، والتلميذ عن دفتره ، وممهد الطرق عن معْوله ، والطفل الصغير عن لعبته ... وجرى أولئك جميعاً في هرج ومرج ، متدافعين متصايحين ؛ يصدمون السابلة عند كل منعطف طريق ... ويهيجون الكلاب ... ويفزّعون الدواجن ... وقد دوّت الشوارع والميادين والرحبات مرددة صدى صيحاتهم : أوقفوا اللص ، أوقفوا اللص ... كانت الصيحة تنطلق من أفواه مائة ، والحشد يزداد كثافة عند كل مفترق طريق ، وقد ثارت الهبوات والأوحال تحت أقدامهم ، وارتفع لنعالهم فوق الأرصفة خفق شديد

وانفتحت النوافذ على مصاريعها ، وهرع الناس من مساكنهم

وتدفّقت الغوغاء فى طريقها لا تربع على شيء ، وانطلق رواد مسرح (بنش) برمتهم ـ والرواية فى أدق مواقفها ـ فالتحقوا بالجموع المتدفقة ، وضاعفوا من صدى الصيحات المتصاعدة ، وأمدوا الصرخة الرهيبة : (أوقفوا اللص!) بقوى ناشطة جديدة

أوقفوا اللص ، أوقفوا اللص ! يبدوا أن هنالك رغبة فى (مطاردة شيء ما) متغلغلة فى نفس كل إنسان ! وها هو ذا طفل بائس مبهور الأنفاس يلهث من فرط الإعياء ، قد ارتسم الجزع فى نظراته ، وبانت سكرة الموت فى عينيه ، وسالت قطرات من العرق كبيرة على وجهه ـ يرهق كل عصب من أعصابه ويستدر كل وتر من أوتار قوته ، لينجو بحياته من براثن مطارديه

ولـكنهم ، فى تعقبهم إياه وازدلافهم نحوه فى كل لحظة ، كانوا يتمثون بصياحهم مذخور نشاطه ويستنهضون بهتافاتهم مخذول قواه وهم يصيحون من خلفه فى حماسة ومرح : أوقفوا اللص!

أجل أوقفوه — نستحلفكم بالله — فذلك عين العطف عليه والرحمة به

وأخيراً وقف ! ويالها من لطمة بارعة ! لقد انكفأ على الإفريز ساكناً لا يختلج ، وأحاطت به الجموع فى لهفة وتطلع ؛ وكان كل قادم جديد يزاحم الآخرين ويدفعهم كيما يحظى بنظرة « تنحوا جانباً » ... « دعوه يتنفس قليلاً » ... « هذيان ! ما هو بجدير أن يشم هذا الهواء » ... « ألا أين السيد ؟ » ... « ها هو ذا قادم من أقصى الطريق » ... « أفسحوا الطريق يا من هنالك للسيد ! » ... « أهذا هو الغلام يا سيدى؟ » « نعم »

وكان أوليفر مطروحاً على الأرض وقد لطخه العثير والطين وانبثق الدم من فمه غزيراً . وراح يجيل عينيه فزعاً مرعوباً فى كتلة الوجوه التى أحدقت به من كل صوب . وتقدم رؤساء المطاردين بالسيد شاقّين له دائرة الجمع الحاشد ، حتى أوقفوه فى المقدمة ، فعاد يقول : نعم ، أخشى أن يكون هو

وهمهم الواقفون : تخشى ؟ عجيب منك هذا القول ...

وعاد السيد يقول : يالطفل المسكين ، لقد أصاب نفسه !

فقال شاب ضخم متبلد — وهو يخطو إلى الأمام قليلاً — بل أنا الذى أصبته يا سيدى ، لقد تحطمت يداى من عظم ما ارتطمت بفمه . أنا أوقفته يا سيدى

ولمس الشاب قبعته وهو يبتسم ، مترقباً الجزاء على ما تعرض له من ألم . ولـكن السيد حدجه بنظرة قاسية وأدار بصره فيما حوله حيران قلقاً ، كما لو كان يراود نفسه على الفرار . ولم يكن من المستبعد أن يحاول ذلك فيكاف القوم مطاردة أخرى ، لولا أن قدم الشرطى فى هذه اللحظة (وإنه لآخر شخص يظهر عادة فى مثل هذه المناسبات) فشق طريقه بين المجتمعين وجذب أوليفر من طوقه وهو يصيح به فى جفاء وغلظة : تعال ... قم ...!

وأطبق أوليفر راحتيه فى توسل ، وشرد ببصره فيما حوله وهو يقول :

لست أنا بالحقيقة ياسيدى ! الحق ؛ الحق أنهما غلامان آخران ، وهما هنا من غير شك فى مكان ما ...

فقال رجل الشرطة : آه ... كلا ، ما من أحد هنا ...

حاول الرجل أن يتهكم بهذا الجواب ، ولـكنه كان يقرر الحقيقة دون أن يعرف ؛ ذلك أن المراوغ ومستر تشارلى باتس كانا قد استدارا عند أول منعطف مرّا به وذهبا ناجيين

وكرر الشرطى صيحته : هيا ... انهض ! فقال السيد وقد استشعر الرأفة : لا تحاول إيذاءه

وأجاب الشرطى — وهو يقدّ سترة الغلام من فوق ظهره ليبرهن على صدق قوله — :

كلا لست أوذيه . انهض ! إنى لأعرفك فلا تجوز علىّ ألاعيبك . أما تنهض على قدميك بعد أيها الحرامى الصغير ؟!

وجهد أوليفر فى النهوض حتى استوى على قدميه ، ثم اقتيد من طوقه خلال الشوارع فى خطوات سريعة ، وكان السيد يمشى إلى جانب الشرطى ؛ أما المتفرجون فلم يغب عن أكثرهم أن يقوم بهذه المناورة البارعة : كانوا يوجفون إلى الأمام فى خطوات قليلات سراع ، ثم يديرون وجوههم ليحدقوا النظر إلى أوليفر بين حين وحين !

وكان الصبية يتصايحون فى نشوة عارمة من الظفر والانتصار

وهكذا انطلق الجميع ميممين ديوان الشرطة[1]

(جرجا) محمود عزت عرفة

(١) اتضحت هنالك براءة أوليفر بشهادة صاحب المكتبة الذى أبصر الحادث على حقيقته . وكان من نتيجة ذلك أن ضم مستر برانلو — ضحية الحادث — أوليفر إلى نفسه ، وكان بسبيل أن يكافئه ويقوم على تربيته لولا أن زج به سوء الطالع مرة أخرى فى أيدى عصابة اللصوص .